الفتح الثاني:

القرآن الكريم

هو المرشد الحقيقي الذي حفظه الله لنا وحفظه بيننا .هو إمامنا وموجهنا وهادينا ودليلنا إلى النهضة الشاملة والتقدم المدني والحضاري والسمو الأخلاقي والتعاون الأخوي والتعامل عن محبة والتكافل عن إيثار . القرآن يحتوي على الحقيقة المطلقة باللغة العربية التي تنسق بين الشريعة وقوانينها وبين الكون الطبيعي وقوانينه : والعالم الروحي وقوانينه لأن الله واحد في الكلمة المحدثة الصادرة عنه في الكون الطبيعي والعالم الروحي والكلمة القديمة له وهي القرآن الكريم .

القرين كتاب هداية وإرشاد ، وبيان وتوجيه ، وهو دعوة وحجة يحتوي على حقائق كاملة شاملى تحكم علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى ، وعلاقته بالكون والطبيعة ، وعلاقته بأخيه الإنسان (الفرد – الأسرة- المجتمع- الدولة – الأمة – تجمعات الشعوب والأمم) . إنه منهاج يقيم حياة الإنسان في الأرض وفق أسسه في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي المعاملات الفردية والاجتماعية والدولية، إنه اعتقاد عن علم وشريعة للعمل ،وهو يدعو الإنسان – الخليفة في الأرض – ليبني صرحًا من المعرفة دائم الترقي يستند إلى العقل والإيمان ، ولذلك فهو حجة ودعوة ترتبط به وفيه الدنيا بالآخرة ..الدنيا هي دار العلم والكد والابتلاء ، والآخرة عنده هي دار الجزاء والثواب أو العقاب ... والحياة في الدنيا إلى فناء والحياة في الآخرة إلى خلود وبقاء . والإنسان يبحث دائمًا عن الحق سيجده كالملاً متكاملاً في القرآن وهو كتاب . كما أنه سيفسر حقائق القرآن من خلال الكون أو الطبيعة وظواهرها والنفس الإنسانية وأسرارها حتى يدرك تطابق الحقائق في القرآن الكريم غير المخلوق المُنزل بالوحي مع الطبيعة المخلوقة وأسرار فسيولوجيا الإنسان وقدراته العقلية والروحية .

ومن هنا يكون النتاج الفكري للإنسان ، تابعًا بالضرورة للحق الكامل المكتمل في القرآن الكريم ، وهو جامع للكلمات التامات بحيث يكون هذا النتاج الفكري بكل مناحيه ، عاملاً مفسرًا للحقائق القرآنية ، وليس حاكمًا عليها ؛ لأن النتاج الفكري دائم التغيير ، حتى ولو كان في زيادة وترقي ، والمجهول يبدو أكثر اتساعًا كلما ازداد الفكر الإنساني في علومه ولعل هذا هو المعنى الذي قصد إليه القرآن في تقريره :﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف :76] ؛ لأن اتساع مناحي العلم تجلب معها اتساعًا أيضًا في المجال غير المعلوم .

ولهذا السبب سيظل الذكر المنزل محفوظًا من أن تشوبه شائبة قصور أو اختلاف ؛ لأن الحق واحد في الكلمة الصادرة عنه المخلوقة والمكتوبة على

السواء، والقرآن بالحق ومن الحق نزل ، وبذلك تزداد عظمته بالنسبة للرؤية بازدياد النتاج الفكري الإنساني في مجالاته المختلفة ووسائله المختلفة .

أن المعرفة الإنسانية في مستواها الحالي ، ليست وليدة لحظتها ، وإنما هي نتاج حلقات متصلة من التطور المستمر ، تُكون كلها بوصل أجزائها . الصرح الذي نعاصره ،فالحركة قانون من القوانين التي تحكم الطبيعة وتحكم الإنسان في فكره وسلوكه ولما كان التغيير المستمر هو من سمات الإنسان الأساسية ، فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة تعدد واختلاف وتغيير في النظريات العلمية التي يضعها الإنسان في إطار اجتهاده الفكري المستمر والمتغير نتيجة تراكم واتساع المعرفة ، وما قد يشوب هذه النظريات من تعديل أو تغيير أو خطأ .

ومن هنا ندرك كيف يتحقق الأمن والسلام عندما يسلك الإنسان سبيل المعرفة العقلية وتطبيقاتها التكنولوجية في إطار أخلاقيات الدين وقيمة توجيهاته الإيمانية للخير أو يسلك سبيل المعرفة الوجدانية الذوقية بالاجتهاد في العبادة والذكر والتسبيح فإن هذا السلوك يحقق ميزتين :

الأولى : ضمان ارتباط الإنسان بالقيم الأخلاقية عند تطبيقه للقوانين التشريعية المحددة وللأفكار والمبادئ والقواعد العامة التي توجه الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية في مجتمعاته .

الثانية : ضمان أمن وسلام الإنسان في مستقبله في حياته الفردية وصلاته الاجتماعية في الأرض ؛ لأن أسس هذه الحياة والصلات ستكون انعكاسًا للأصول النظرية العامة لأصول الكتب الإلهية كلها ولتوجيهات القرآن آخرها في ظل إيمان وتدين تتصل بهما مثل وقيم وأخلاقيات بعيدًا عن تأثيرات الأهواء والنظريات الجامدة أو المتغيرة والمصالح الضيقة الضارة بالغير .

إن القرآن يقيم ويوجه حضارة الإنسان على أساس الربط والابتكار والتقدم

وترقي ونمو واتساع نتاج الفكر الإنساني وبين توجيهات المثل والقيم الأخلاقيات النابعة من الدين والإيمان ، بما يمكن من قيام مجتمع هو خير المجتمعات في الأرض تعيش فيه أمة هي خير أمة أخرجت للناس .ولذلك كان من الضروري أن يوجه الدين الإنسان في الأرض في وجوده الاجتماعي والمتخذ شكل علاقات بسائر مجتمعات البشر فضلا عن البيئة المحيطة فذلك وحده هو الذي يحقق سلامة وسلام المسيرة المعرفية والعلمية وتطبيقاتهما التكنولوجية وسلامة وسلام البناء الاجتماعي العاكس لهذه المسيرة ومستواها في الجيل المعين ، ويخطو بالفكر الإنساني خطوات كبيرة نحو اكتشافات جديدة للوجود واستغلالها الاستغلال المثل لصالح الإنسانية جمعاء ويسلك نفس الخطوات في فروع المعرفة المتصلة بنظام الحياة في كل مجالاته في كل المجتمعات .

وبغير هذا فإن السلوك الإنساني في الأرض نتيجة تقدمه العلمي والتكنولوجي سوف لا يخضع لقيم الدين والإيمان ومثلها وأخلاقياتها وإنما سيخضع لما يضعه البشر للبشر من قيم مادية نتيجة عوامل مادية بحتة ومصالح ضيقة أو موقوتة ، فالإنسان ليس مجرد عنصر من عناصر الإنتاج شأنه شأن الأرض أو الآلة ، كما أنه ليس مجرد وسيلة للتنمية ، لكنه غاية التنمية وعدم تأهيله وتعليمه وإعداده يمثل خسارة في الإنتاج والنمو الاقتصادي من جهة وخسارة في عملية بناء الإنسان والعلاقات الإنسانية في المجتمع من جهة أخرى وبناء الدولة الحديثة .

والقرآن في الحقيقة طاقة أو نور أرواح .والله سبحانه وتعالى يمنحنا من هذه الطاقات أسباب الحياة المتسامية في روحها ونورها وهديها . نخرج بهما من ضيق الظلمات وشدتها إلى سعة الأنوار عقيدة وعبادة وأخلاقًا ومعاملة : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:123] .

لقد وجهنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن نتعوذ من شرور الظلمات

الجاهلية إذا اشتدت علينا في الزمان والمكان فقال في سورة الفلق : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومنحنا سبحانه القدرة على اختيار طريق الحياة المستقيم الذي تحيط به أنوار الحق ونحن نستطيع أن نسمو بأنفسنا من خلال ذكر أسماء الله الحسنى لنجد فيها سمو أرواحنا في مقام عبادتنا لله كأننا نراه وأن نزيد من هذا السمو لنتحقق بأنه إذا كنا لا نرى الله فإن الله يرانا وقد روى عن رسول الله ﷺ أن من أحصى تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنى دخل الجنة والإحصاء هنا ليس بمعنى العد أو الحفظ وإنما هو بمعنى التحمل أو الإطاقة من خلال جهاد النفس للتخلق بحسن معانيها وما تؤتيه من أثر في طمأنينته وراحة البال واستقامة السلوك مع الله ومع الناس ، وقد فظن إلى هذا المعنى الذي نقول الدكتور جفري لانج (1) وصاغه في عبارات جذابة وجميله في قوله :« دعنا نعود ثانية على أسماء الله الحسنى نتذكر هذه المرة نقاشنا عما يتطلبه الإسلام من الإنسان وفي أثناء قراءة القرآن فإنه يذكرنا دائمًا بالسمات والصفات التي يجب أن ننميها في أنفسنا .لن يمر وقت طويل قبل أن تبدو لنا نقاط لقاء كثيرة بين هذه الصفات مع الإنسان الذي يحاول إرضاء نزعة التسامي فيه لأن جميع الفضائل تقريبًا التي يجب أن ننميها في أنفسنا يوجد أصلها وكمالها في صفات الله .مثلاً يجب أن ننمي في أنفسنا فضيلة الإحسان ، والرأفة والسخاء والاعتدال والرحمة ،والولاء ، والتسامح ، والكرم واللطف والعطاء ، والسماحة . والكرامة ، والعدل والشفقة ، وحب الآخرين ، والمسالمة وحماية الضعيف ، والصدق والمعرفة .والحكمة وكلها تبرز من صفات الله وكماله ، وهكذا بتنمية هذه الصفات فينا ، يزداد قربنا من الله وتزداد معرفتنا به وحيث إن المخلوقات البشرية تستطيع التخلق بهذه الفضائل

(1) في كتابه «حتى الملائكة تسأل» ترجمة دكتور زين نجاتي الناشر مكتبة الشروق الدولية .والدكتور لانج أستاذ الرياضيات في جامعة كانزاس الأمريكية اعتنق الإسلام أوائل الثمانينيات من القرن العشرين .

وممارستها بمستويات أعلا من بقية المخلوقات فقد أصبح لديها القدرة على التواصل مع الله بأسلوب ودود متفرد »انتهى .

إن القرآن يدعو الناس والشعوب إلى التعارف ويرفع شأنه الناس من نظرة الحيوانية والمادية والآلية الصرفة إلى آفاق العقل والروح الموصولين بخالق الناس ،وهو يقيم علاقات الأفراد والشعوب على أساس القيم الأخلاقية للأديان السماوية كلها وخشية الله ، مرتبطة بتشريعات العدالة الاجتماعية والاقتصادية والشورى السياسية ، والمراقبة الفردية الذاتية للسلوك الإنساني وأهدافه .

إن أزمة العالم المعاصر هي أزمة أخلاقية بالدرجة الأولى تضافرت في أحداثها عوامل سياسية واقتصادية ومالية أساسا ومن ثم فإنه يتعين علينا كمؤمنين أن نحسن من أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية في القوت نفسه الذي نعمل فيه لتقويم أخلاقياتنا وأنماك سلوكياتنا بالتربية والتعليم وتجديد المفاهيم الدينية غير المواكبة للعصر في الرؤية الإيمانية والسلوك الإحساني .

ونظرتنا إلى المستقبل تقترن بالضرورة بدراستنا للتاريخ واستيعاب دروسه لعلاج الحاضر والتخطيط للمستقبل(1) ، والعناية بعلم المستقبل وذلك من زاويتين :

الأولى : تاريخ الإنسان الأول العاقل السوَّي وتجربته التي هبط معها من الجنة إلى الأرض ، بكل عناصرها ودلالاتها ودروسها .

الثانية: التاريخ الحضاري للإنسان عبر العصور المختلفة وحتى يومنا .

وغنى عن القول أن القرآن اهتم اهتمامًا كبيرًا بالناحيتين .الأولى في آياته المتكررة لقصة آدم العقل التي ساقها لأخذ العظة ومعرفة خصائص تركيب هذا

(1) (Futurolgy).

الإنسان في الخلق والمتميز بالعقل والحرية والإرادة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، ودراسة التجربة الآدمية من جميع وجوهها ودلالاتها بعد معرفة عناصرها المتصلة بالتركيب العضوي للإنسان وقدراته العقلية وحاجاته الضرورية الغريزية والأساسية في الحياة . والثانية بسرد أحسن القصص عن تاريخ الأمم السابقة وما شادته من مدنيات وحضارات شامخة – مركزًا على الحضارة الفرعونية بالذات التي قدمت للإنسان معارفا وعلوما ما زالت تحيرنا بالنسبة لمستواها في عصرها .

ويخبرنا القرآن بأن التاريخ الإنساني في الأرض يرتبط بعدة أمور مهمة وجوهرية في حياة الإنسان ذاته وهي :

1 – وحدة الذات الإلهية باعتبارها مصدر الوجود وأحداثه التي ترجع في أصلها الأول إلى أنواع من الطاقة منها المعروف لنا ومنها غير المعروف .

2 – وجود «الغاية » وراء تحقق هذه الأحداث في تطورها من غير العاقل إلى العاقل استكمالاً وإكمالاً لدور «العبادة» للإله الواحد .

3 – إيجاد المخلوقات العاقلة في الكون ، واختيار الإنسان من بينها جميعًا ، ليكون الكائن الحي العاقل المدرك لخصائص الإلوهية في مظاهرها الطاقية الأسمائية الكونية بما يحقق «الغاية» وهي العبادة ، عن طريق نمو وترقي المعارف المستمرين .

4 – تحقق الصلة بين ذات الإله وبين الإنسان عن طريق الأنبياء المصطفين والمميزين بقدراتهم العقلية والروحية العالية ، يحملون صور الهدى الإلهي إلى الإنسان وقيمه الأخلاقية السامية .

5 – ترابط الهدى الإلهي كله المنزل إلى الإنسان في إطار معنى واحد وصفة

واحدة هي «الإسلام» ، رغم امتداد الأحداث الملابسة لصور هذا الهدى وملابسات نزوله لفترات محدودة في الزمان وتحديدات معينه في المكان .

6-وجود تصور قرآني شامل يربط بين الإنسان والكون والإله من اجل خير وسعادة الإنسان في إطار نظرة شاملة تقوم على افخياء والمحبة والعدل والمساواة والتعاون في إطار مفهوم «الجسد الواحد» .

7-الأمانة التامة والصحة الكاملة في رواية الحادث التاريخية التي يرويها باعتباره الصورة الخاتمة لأشكال الهدى الإلهي للإنسان : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:3] .

وليس السرد القرآني للأحداث والوقائع التاريخية من قبيل الأساطير التي تروى للتسلية كما يظن الكافرون : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:5] . ولكنها رصيد من التجارب الإنسانية في السلوك الفردي والسلوك الاجتماعي المرتبط بالدوافع العضوية والنفسية والمشاعر والاعتقادات والمصالح .. إلخ . للإنسان الذي يحدد ويقيم مصالحه في العلاقة بالمحيطين الاجتماعي والدولي السائدين .

لقد أراد الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يكون متميزًا بعقله على الوجود الكوني الصرف ، المادي أو الطاقي ، وكان مناط هذا التميز هو النفخة الروحية الربانية التي جعلت الإنسان ، الطيني الأصل ، خلقًا آخر غير الخلق الطيني البحت الذي ينتسب لمادة الأرض ، يميز به الإنسان هذه كان التكليف الإلهي للإنسان مصحوبًا بحرية الاختيار المتصلة بالعقل ، يميز به الإنسان بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الظلمات والنور : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ فقد أعطى الإنسان وسائط شهود الآيات ووسائط التعبير عما يراه أو يتعلمه بالحواس : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ

عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: 8- 10] ومن هذه المنحة الإلهية كان العلم الإنساني مستندًا أولا إلى العقل، يكشف ويستخدم هذا العلم ويرتقي بمستواه على مر العصور: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

التاريخ يبحث أساسًا في الإنسان لأنه اساس المدنية والحضارة، والإنسان عبر التاريخ هو في الحقيقة «الحكمة» أو «الغاية» من الوجود ذاته في عملية السعي الدائب للوصول إلى الحقيقة المطلقة. الطريق الإنساني الطويل في الأرض ديناميكي لا استاتيكي، أي متحرك وليس ثابتًا. والطريق هو السلوك الإنساني عبر الأجيال، الأحداث المتصلة بالإنسان عير القرون، هو عبارة عن علاقة «العقل» «بالمعقولات». وتاريخ الإنسان العاقل يبتدئ منذ آدم العاقل المذكور في الكتب السماوية، التوراة والإنجيل والقرآن، وهو عبارة عن قدرة العقل الإنساني على المعرفة من خلال العلاقة بين العقل – الناتج من النفخة الروحية الربانية – وبين الكون كله، في سعي الإنسان المتواصل لاستزادة معرفته بنفسه وبالبيئة المحيطة به وبالكون المحيط وما وراءه من إله خالق قادر، خالق لكل شيء.

إن دراسة التاريخ التي يوجهها إلينا القرآن ويسرد وقائع لها تعتبر دراسة واقعية تفيد الإنسان من حيث حياته الاجتماعية الواقعية في حاضره ومستقبله، تقويمًا للحاضر وتخطيطًا للمستقبل، ودراسة فلسفة التاريخ هي دراسة نظرية علاقتها بالواقع هي دراسة تفسير وتكييف وتقويم ومعرفة الغاية والقصد في إطار «الحكمة» كلها تمثل «المعنى» الذي ينبغي أن يضبط الإنسان نفسه في إطاره عندما يقوم باستخدام تطبيقات العلوم التكنولوجية «المعنى» الذي تمثله قيم الدين وعلى رأسها الإيمان والعمل الصالح، أي الخير النافع للناس.

إن بداية الوجود الإنساني العاقل في الجنة في القرآن هي بداية الوجود للإنسان

العاقل المتميز بالعقل بعد التسوية ونفخ الروح فيه من خالقه وربه وهو الإنسان القادر على تصور شامل يربط بين الإله والكون والإنسان ، وبداية العقل هي بداية الدين ، وبداية الدين هي أعلى خطوات الإنسان في إيجاده وبلورة هذا التصور ذاته . إن الدين – كل الدين- بقيمه الروحية الأخلاقية ، وتشريعاته العادلة ، هو أمل الإنسان المعاصر في تحطيم أغلاله المادية والحيوانية التي يقيده بها الماديون في الغرب والشرق على السواء . « لقد بنيت قواعد الأخلاق النظرية في المدنية العصرية على بقايا الأخلاق المسيحية ، بيد أن أحدا لا يطيعها .فقد نبذ الإنسان العصري كل نظام شهواته ، ومع ذلك فليس في الآداب البيولوجية والصناعية أية قيمة عملية لأنها أداة مصطنعة ولا تدخل في اعتبارها إلا ناحية واحدة من نواحي الإنسان ، إنها تتجاهل بعض وجوه نشاطنا الأكثر أهمية ولا تزود الإنسان بسلاح على درجة كافية من القوة ليحميه من رذائله الفطرية وذلك ما يقوله : الطبيب الفرنسي في كتابه / عن الإنسان ذلك المجهول ، وهو الحاصل على جائزة نوبل عام 1912 لأبحاثه الطبية الفذة . (ACEXIS CAREILLE) .

عن القرآن العظيم

عندما نتحدث عن القرآن العظيم فإننا نتحدث عن كلام الله الموحى به إلى النبي محمد ﷺ باللفظ والمعنى ،ولذلك فإن القرآن يحتوي على الحقيقة المنطلقة المتسقة بين اللغة وبين الكون الطبيعي والعالم الروحي وذلك لسبب بسيط وهو أن الله واحد في الكلمة الصادرة ، عنه في الطبيعة (الكون الطبيعي والعالم الوحي) والقديمة (القرآن) .

ولكن هذه الحقيقة (المطلقة في ذاتها وفي محتواها الموضوعي المنزل متصلة بالإنسان يفهمها بفهوم نسبي رغم كونها هي مطلقة وبذلك تكون الحقائق القرآنية دائمًا ثابتة بينما مفاهيم الإنسان متغيرة أن القرآن هو المنهج الأساسي والأكبر للحياة بالنسبة للفرد والمجتمع والدولة ، كما أن اتصالنا بالله سبحانه وتعالى للتعرف على قدرته المتصلة بذاته ، يكن عن طريق القرآن ، كلام الله .

ومعرفتنا بالله عن طريق القرآن هي التي تجمع بين عالمي الغيب والشهادة وتعامل الإنسان معها في إطار مبادئ وأسس وقيم الإيمان الذي يمثل الالتزام بقضاء الله وكلام الله كما جاء في النص القرآني .ورغم أن مفاهيمنا المتصلة بالنص القرآني قد تتعدد نتيجة التباين أو التفاوت في فهم النص وفي الاجتهاد بشأنه ، فإن مرجعيتنا في النهاية يجب أن تكون صادرة عن أو راجعة إلى النص ذاته .

ليس القرآن كتابًا للنظريات العلمية المفصلة كما ذكرنا سابقًا وليس ذلك شأنه ، فهو كتاب هداية وبيان وتوجيه ،وهو دعوة وحجة يحتوي على حقائق كاملة شاملة ، ، تحكم علاقة الإنسان بالإلهة تبارك وتعالى ، وعلاقته بالكون أو الطبيعة ، وعلاقته بأخيه الإنسان . (الفرد ، الأسرة ، الدولة ، الأمة ، التجمعات الدولية للشعوب والأمم .. إلخ) إنه منهاج يقيم حياة الإنسان في الأرض وفق أسسه في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي المعاملات الفردية والاجتماعية والدولية .. إنه اعتقاد عن علم ، وشريعة للعمل ، وهو يدعو الإنسان – الخليفة العاقل في الأرض – ليبني صرحًا من المعرفة دائم الترقي يستند إلى العقل والإيمان لغيره ، ولذلك فهو حجة ودعوة ، ترتبط به وفيه الدنيا بالآخرة .. الدنيا عنده هي دار العلم والكد والابتلاء ، والآخرة عنده هي دار الجزاء والثواب أو العقاب .. والحياة في الدنيا إلى فناء والحياة في الآخرة إلى خلود وبقاء .والإنسان الذي يبحث دائمًا عن الحق سيجده كاملا متكاملاً في القرآن ، وهو كتاب ، كما أنه سيفسر حقائق القرآن

من خلال الكون الذي هو أيضًا كتاب (الأول مسطور والثاني منظور)أو الطبيعة وظواهرها حتى يدرك تطابق الحقائق في القرآن الكريم المنزل مع الطبيعة المخلوقة .

ومن هذا يكون النتاج الفكري للإنسان ، تابعًا بالضرورة للحق الكامل المكتمل في القرآن العظيم ، وهو جامع للكلمات التامات بحيث يكون هذا النتاج الفكري بكل مناحيه ، عاملا مفسرًا للحقائق القرآنية وليس حاكمًا عليها ؛ لأن النتاج البشري الفكري دائم التغيير ، حتى ولو كان في زيادة وترق والمجهول يبدو أكثر اتساعًا كلما ازداد الفكر الإنساني في علومه ، ولعل هذا هو المعنى الذي قصد إليه القرآن في تقريره :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:76] .لأن اتساع مناحي العلم تجلب معها اتساعًا أيضًا في المجال غير المعلوم الذي يدخل في دائرة ما يسميه القرآن (الغيب) .

ولهذا السبب سيظل الذكر المنزل محفوظًا من أن تشوبه شائبة قصور أو اختلاف ، ل، الحق واحد في الكلمة الصادرة عنه ، المخلوقة والمكتوبة على السواء ، والقرآن بالحق ومن الحق نزل ، وبذلك تزداد عظمته بالنسبة للرؤية الإنسانية بازدياد النتاج الفكري الإنساني في مجالاته المختلفة .

إن المعرفة الإنسانية في مستواها الحالي ، ليست وليدة لحظتها ، وإنما هي نتاج حلقات متصلة من التطور المستمر ، تكون كلها بوصل أجزائها ، سلسلة كاملة من المعرفة حدودها الأخيرة ،وليس الآخرة ، هي حلقة الجبل الذي نعاصره ، فالحركة قانون من القوانين التي تحكم الطبيعة وتحكم الإنسان في فكره وسلوكه ، ولما كان التغيير المستمر هو من سمات الإنسان الأساسية فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة تعدد واختلاف الفكر المستمر والمتغير نتيجة تراكم واتساع المعرفة

عبر تتابع الأجيال وتتابع العلماء فيها واكتشافاتهم العلمية .

الأول: ضمان ارتباط الإنسان بالقيم الأخلاقية عند تطبيقه للقوانين التشريعية المحددة وللأفكار والمبادئ والقواعد العامة التي توجه الإنسان في حياته الفريدة والاجتماعية .

الثاني : ضمان أمن وسلام الإنسان في مستقبله في حياته الفردية وصلاته الاجتماعية في الأرض ، لأن أسس هذه الحياة والصلات ستكون انعكاسًا للأصول النظرية العامة لتوجيهات القرآن المصدق لكتب الله السابقة .في ظل إيمان وتدين تتصل بهما مثل وقيم وأخلاقيات تدعو إليها وترشدنا إليها كل كتب الله ورسالاته السماوية .

إن القرآن يقيم ويوجه حضارة الإنسان على أساس الربط بين الابتكار والتقدم وترقي ونمو واتساع الفكر الإنساني ، وبين توجهات المثل والقيم والأخلاقيات النابعة من الدين والإيمان بما يمكن من قيام مجتمع هو خير المجتمعات في الأرض تعيش فيه امة هي خير أمة أخرجت للناس . ولذلك كان من الضروري أن يوجه الدين للإنسان في الأرض في وجوده الاجتماعي والمتخذ شكل علاقات بسائر مجتمعات البشر فضلا عن البيئة المحيطة . فذلك وحده هو الذي يحقق سلامة المسيرة المعرفية والعلمية وسلامة البناء الاجتماعي العاكس لهذه المسيرة ومستواها في الجيل المعين ، ويخطو بالفكر الإنساني خطوات كبيرة نحواكتشاف حقائق واستغلالها الاستغلال الأمثل لصالح الإنسانية جمعاء ويسلك نفس الخطوات في فروع المعرفة المتصلة بنظام الحياة في كل مجالاته في الدولة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية .. إلخ .

وبغير هذا فغن السلوك الإنساني في الأرض نتيجة تقدمه العلم والتكنولوجي لا يخضع لأسس الدين والإيمان ومثلهما وقيمهما وأخلاقياتهما وإنما سيخضع

لما يضعه البشر للبشر من قيم مادية ليست بالضرورة أخلاقية وإنما غالبًا ما تكون نتيجة عوامل مادية بحته بينما الإنسان ليس مجرد حيوان أو آلة أو سلعة إنما هو محور هذا الوجود والهدف من رسالات الله وهديه جميعها .

ماهية القرآن الكريم

وينبغي – في هذا المجال – أن نلقي الضوء على ماهية القرآن أو الكتاب ، حتى لا يلتبس المفهوم القرآني في الحقيقة بالمفهوم التقليدي الدارج (1) .

الكتاب في اللغة مصدر من مصادر كتب بالقلم وهو أيضًا يطلق على اسم المكتوب ، وقد غلب استعماله في عرف أهل الشرع على كتاب الله تعالى الموجود في المصاحف .

والقرآن مصدر لقرأ كالقراءة وسمي به المقروء وهو كتاب الله تعالى .وهناك قول آخر بأنه مصدر لقرأ بمعنى جمع ، ويسمى به القرآن لأنه جمع السور كلها أو لأنه جمع ثمرات الكتب السماوية السابقة أو لأنه جمع القصص والأوامر والنواهي والوعد والوعيد والآيات والسور ، وهناك أقوال أخرى في القرآن .

والقرآن ، في المفهوم الدارج يطلق على المجموع المعين من كلام الله تعالى المتلو من عباده أما في مفهوم (رجال أصول الفقه)فهو « كلام الله تعالى القديم المنزل على رسوله محمد ﷺ المتعبد بتلاوته والمنقول إلينا في المصاحف نقلاً متواترًا ».

يقول الله تعالى في سورة الجن في القرآن العظيم عن نفر من الجن :

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:1 – 2] .فصح أن الصوت

(1) محاضرات الأستاذ الشيخ محمد فرج السنهوري لقسم الشريعة الإسلامية بالدراسات العليا بحقوق القاهرة .

الملفوظ به المسموع هو القرآن حقيقة ، وهو كلام الله ويعبر بهما حقيقة عما يفهم من هذه الأحداث فإذا بينا معنى الزكاة والصلاة والصوم والحج ، قلنا في كلام الله وهو القرآن ويعبر بهما عما هو مكتوب في المصحف قال الله عز وجل :﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77-78] .

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[البينة:2-3] .

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت:49] .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾[يونس:19] .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾[الأنعام:115] .

ولا يفهم من هذا إلا أنه إنما عنى بما سبق في علمه بما ينفذه بالخلق والإيجاد والصنع والفعل في الوجود بحيث يكون القرآن وكلام الله غير مخلوقين ، والمخلوق هو ما نلفظ به أو نسمعه . انتهى .

وعامة العلماء وجمهورهم يقولون : إن القرآن العظيم هو المعنى والنظم العربي الذي لا يصح فيه تبديل ولا تغيير ولا تأخير ، فأي معنى من معاني القرآن يريد بغير أسلوبه ونظمه أو بلغة أخرى غير عربية لا يسمى قرآنًا ولا يثبت له شيء من أحكام القرآن .

وكلام الله تعالى صفة قديمة من صفاته التي ليست من جنس الأصوات والحروف ، ولها تعلق قديم أزلي هو الكلام النفسي الغيبي وتعلق تنجيزي كوني هو إظهار الكلام الغيبي في سور لفظية منزلة إلى الكون وعالم المادة . وهذا النظم والمعنى هما اللذان يزيدهما الأصوليون .يقول الأستاذ الشيخ العالم محمد فرج

السنهوري (1) عليه رحمة الله عن القرآن :

أجمع المسلمون على أنه كلام ثم اختلفوا في معناه :

1- الأشعرية قالت إن الكلام صفة لذات الله تعالى ، وهي قديمة وزائدة على ذاته ، ولها تعلق أزلي هو الكلام النفسي ، وتعلق تنجيزي هو ما أنزل على الرسل ومنه القرآن ،والكلام بالمعاني الثلاث قديم .

2-المعتزلة قالت إن كلام الله صفة لفعل خلقه الله ، فكلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام هو ما خلقه وأحدثه في الشجرة من الكلمات والصوات .

3-طائفة من أهل السنة من بينهم الإمام أحمد بن حنبل قالت : إن كلام الله هو علمه القديم لا غيره .

4-ابن حزم ذهب إلى الرأي السابق نفسه ، وقال :إن القرآن وكلام الله لفظان مختلفان معناهما واحد .والقرآن كلام الله نزل به الروح الأمين على قلب النبي محمد ، والقرآن وكلام الله يعبر بهما حقيقة لا مجازا عن الصوت الملفوظ المسموع فالله تعالى يقول : ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] .﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة:75] . ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[المزمل:20] .

وبناء عليه لا تعتبر ولا تسمي ترجمة القرآن قرآنًا بل لا يصح شرعًا ترجمة نظم القرآن لتعذر ذلك وإنما تجوز ترجمة معاني القرآن أو ترجمة تفسيره ولكن ليس على أنه هو القرآن وإنما باعتباره تفسيرًا له فقط وهو لن يعطي نفس الآثار أو المعاني الخفية أو الأسرار والدلالات التي تعطيها اللغة العربية ، اللغة التي نزل بها القرآن . فهذه الترجمات كلها لن تمكن القارئ للقرآن بواسطتها أن ينفذ إلى إعجازه وسمو

(1) في محاضراته لطلبة الدراسات العليا في قسم الشريعة الإسلامية بكلية حقوق جامعة القاهرة .

بلاغته وفصاحته وإدراك عظمة بيانه وتكونات آياته والحظوة بأنواره وتأثير آياته وهدايته . وسيقتصر وعي وإدراك القارئ على جزء من وعي وإدراك المترجم الذي عبَّر عنه بترجمته المحاطة بكثير من جوانب القصور والنسبية لأنه لن يحصل العائد النفسي والوجداني والإيماني أو العائد المعرفي والعلمي الكامل الذي تؤديه اللغة العربية التي نزل بها القرآن العظيم .

ومن روائع ما قاله الإمام ابن القيم عن (الخطاب القرآني) قوله في كتابه (التبيان في أقسام القرآن) :

«تأمل خطاب القرآن تجد ملكًا له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردها إليه ، مستويًا على العرش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالمًا بما في نفوس عبيده ، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردًا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ، ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضي ، ويدر الأمور ، نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصادعة إليه . لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليه بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ، يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال ، وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ،

ويقول الحق ويهدي السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها ، ويذكِّر عباده فقرهم إليه ، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناه عنهم وهم جميع الموجودات ، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ... » أ . هـ .